مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الْخَامِسَة)

مِنْ مَادَّةِ

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآن

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ

فَقَدْ مَرَّ -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- بَيَانُ طَرَفٍ مِنْ أَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

وَالْحَقُّ: أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ، فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ هُوَ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ وَفَلَاحِهِ وَثَبَاتِهِ، وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ فِي تَثْبِيتِ قَوَاعِدِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَإِرْسَاءِ دَعَائِمِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَ بِتَدَبُّرِ كِتَابِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ، وَالِاهْتِدَاءِ بِآيَاتِهِ، وَأَثْنَىٰ عَلَىٰ الْقَائِمِينَ بِذَلِكَ، وَجَعَلَهُمْ فِي أَعْلَىٰ الْمَرَاتِبِ، وَوَعَدَهُمْ أَسْنَىٰ الْمَوَاهِبِ.

فَلَوْ أَنْفَقَ الْعَبْدُ جَوَاهِرَ عُمُرِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ؛ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَثِيرًا فِي جَنْبِ مَا هُوَ أَفْضَلُ الْمَطَالِبِ، وَأَعْظَمُ الْمَقَاصِدِ، وَأَصْلُ الْأُصُولِ كُلِّهَا، وَقَاعِدَةُ أَسَاسَاتِ الدِّينِ، وَصَلَاحِ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكَانَتْ حَيَاةُ الْعَبْدِ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ زَاهِرَةً بِالْهُدَىٰ، وَالْخَيْرِ، وَالرَّحْمَةِ، وَطِيبِ الْحَيَاةِ، وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «لَيْسَ شَيْءٌ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ وَأَقْرَبَ إِلَىٰ نَجَاتِهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَإِطَالَةِ التَّأَمُّلِ، وَجَمْعِ الْفِكْرِ عَلَىٰ مَعَانِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّهَا تُطْلِعُ الْعَبْدَ عَلَىٰ مَعَالِمِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ بِحَذَافِيرِهَا، وَعَلَىٰ طُرُقَاتِهِمَا، وَأَسْبَابِهِمَا، وَغَايَاتِهِمَا، وَثَمَرَاتِهِمَا، وَمَآلِ

أَهْلِهِمَا، وَتَتُلُّ فِي يَدِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ السَّعَادَةِ وَالْعُلُومِ النَّافِعَةِ -تَقُولُ: تَلَّ الشَّيْءَ فِي يَدِ فُلَانٍ: وَضَعَهُ فِيهَا، أَوْ دَفَعَهُ إِلَيْهِ-، وَتُثَبِّتُ قَوَاعِدَ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ، وَتُشَيِّدُ بُنْيَانَهُ، وَتُوَطِّدُ أَرْكَانَهُ، وَتُرِيهِ صُورَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَصُورَةَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فِي قَلْبِهِ، وَتُحْضِرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَتُرِيهِ أَيَّامَ اللهِ تَعَالَىٰ فِيهِمْ، وَتُبَصِّرُهُ مَوَاقِعَ الْعِبَرِ، وَتُشْهِدُهُ عَدْلَ اللهِ وَفَضْلَهُ، وَتُعَرِّفُهُ ذَاتَهُ، وَأَسْمَاءَهُ، وَصِفَاتِهِ، وَأَفْعَالَهُ، وَمَا يُحِبُّهُ، وَمَا يُبْغِضُهُ، وَصِرَاطَهُ الْمُوصِلَ إِلَيْهِ، وَمَا لِسَالِكِيهِ بَعْدَ الْوُصُولِ وَالْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَتُبَيِّنُ لَهُ قَوَاطِعَ الطَّرِيقِ وَآفَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ النَّفْسَ وَصِفَاتِهَا، وَمُفْسِدَاتِ الْأَعْمَالِ وَمُصَحِّحَاتِهَا، وَتُعَرِّفُهُ طَرِيقَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَأَعْمَالَهُمْ، وَأَحْوَالَهُمْ، وَسِيمَاهُمْ، وَمَرَاتِبَ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَأَقْسَامَ الْخَلْقِ، وَاجْتِمَاعَهُمْ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَافْتِرَاقَهُمْ فِيمَا يَفْتَرِقُونَ فِيهِ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ: أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ، وَطِلَّسْمُهُ: الْغَوْصُ بِالْفِكْرِ إِلَىٰ قَرَارِ مَعَانِيهِ.

فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ إِنْ رُمْتَ الْهُدَىٰ فَالْعِلْمُ تَحْتَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلْقَلْبِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ؛ فَإِنَّهُ جَامِعٌ لِجَمِيعِ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، وَأَحْوَالِ الْعَامِلِينَ، وَمَقَامَاتِ الْعَارِفِينَ، وَهُوَ

الَّذِي يُورِثُ الْمَحَبَّةَ، وَالشَّوْقَ، وَالْخَوْفَ، وَالرَّجَاءَ، وَالْإِنَابَةَ، وَالتَّوَكُّلَ، وَالرِّضَا، وَالتَّفْوِيضَ، وَالشُّكْرَ، وَالصَّبْرَ، وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ وَكَمَالُهُ، وَكَذَلِكَ يَزْجُرُ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي بِهَا فَسَادُ الْقَلْبِ وَهَلَاكُهُ.

فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ؛ لَاشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ؛ حَتَّىٰ مَرَّ بِآيَةٍ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ؛ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ وَلَوْ لَيْلَةً، فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفَهُّمٍ خَيْرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَدْعَىٰ إِلَىٰ حُصُولِ الْإِيمَانِ، وَذَوْقِ حَلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَةَ السَّلَفِ، يُرَدِّدُ أَحَدُهُمُ الْآيَةَ إِلَىٰ الصَّبَاحِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا حَتَّىٰ الصَّبَاحِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ هِيَ أَصْلُ صَلَاحِ الْقَلْبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ».

الدَّقَلُ -مُحَرَّكَةً-: واحِدُهُ دَقَلَةٌ، وَهُوَ رَدِيءُ التَّمْرِ وَيَابِسُهُ، وَمَا لَيْسَ لَهُ اسْمٌ خَاصٌّ، فَتَرَاهُ لِيُبْسِهِ وَرَدَاءَتِهِ لَا يَجْتَمِعُ، وَيَكُونُ مَنْثُورًا.

«لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ».

وَرَوَىٰ أَيُّوبُ عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنِّي سَرِيعُ الْقِرَاءَةِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثٍ.

قَالَ: لَأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ فَأَتَدَبَّرَهَا وَأُرَتِّلَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ كَمَا تَقْرَأُ».

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

التَّفَكُّرُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى نَوْعَيْنِ

وَالتَّفَكُّرُ فِي الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

١-تَفَكُّرٌ فِيهِ؛ لِيَقَعَ عَلَىٰ مُرَادِ الرَّبِّ تَعَالَىٰ مِنْهُ.

٢-وَتَفَكُّرٌ فِي مَعَانِي مَا دَعَا عِبَادَهُ إِلَىٰ التَّفَكُّرِ فِيهِ.

فَالْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْقُرْآنِيِّ.

وَالثَّانِي: تَفَكُّرٌ فِي الدَّلِيلِ الْعِيَانِيِّ.

الْأَوَّلُ: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَسْمُوعَةِ، **وَالثَّانِي**: تَفَكُّرٌ فِي آيَاتِهِ الْمَشْهُودَةِ».

وَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ أَعْظَمُ مَا يَقُودُ إِلَىٰ تَعْظِيمِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ مِنَ الْخَلْقِ؛ قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

لَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِتَعْظِيمِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣]، أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، وَأَصْلُ عِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ: مَعْرِفَتُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ

﴿إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

لَقَدْ ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَنْ لَا يَقْدُرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا يُعَظِّمُهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، فَقَالَ -جَلَّ ذِكْرُهُ-: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَاللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، ذَكَرَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ؛ لِيُثْبِتَ عَظَمَتَهُ فِي نَفْسِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الصِّفَاتِ، وَلِيُثْبِتَ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ، وَلِيُثْبِتَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رُسُلِهِ، فَقَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي الزُّمَرِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَقَالَ فِي الْحَجِّ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

وَقَالَ فِي الْأَنْعَامِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

وَفِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ ذَمَّ الَّذِينَ مَا قَدَرُوا اللهَ ﷻ حَقَّ قَدْرِهِ مِنَ الْكُفَّارِ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَقْدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَهُ

حَقَّ تُقَاتِهِ، وَأَنْ يُجَاهِدَ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٧].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ لَهُ قَدْرًا عَظِيمًا؛ لَاسِيَّمَا قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «جَاءَ حَبْرٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ -حَبْرٌ (بِكَسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا): وَاحِدُ الْأَحْبَارِ، وَهُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الْعَالِمُ، وَمَعْنَاهُ: الْعَالِمُ بِتَحْبِيرِ الْكَلَامِ، وَكَانَ يُقَالُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: الْحَبْرُ، وَالْبَحْرُ؛ لِعِلْمِهِ رضي الله عنه-، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ؛ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ؛ تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]»، وَالْحَدِيثُ -كَمَا مَرَّ- فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّوَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَىٰ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**».

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ أَعْظَمَ مَا يُشْعِرُ الْقُلُوبَ بِعَظَمَةِ اللهِ، وَجَلَالِهِ، وَخَشْيَتِهِ، وَحُبِّهِ: تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ مِفْتَاحُ الْعُلُومِ، وَبِهِ يَزْدَادُ الْإِيمَانُ، وَتَصِحُّ الْفُهُومُ؛ قَالَ رَبُّنَا الْحَيُّ الْقَيُّومُ: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال: ٢].

وَمِنَ الدُّرَرِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ الْآجُرِّيِّ الْإِمَامِ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّهُ قَالَ:

«أَلَا تَرَوْنَ -رَحِمَكُمُ اللهُ- إِلَىٰ مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ؛ كَيْفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ عَلَىٰ أَنْ يَتَدَبَّرُوا كَلَامَهُ؟! وَمَنْ تَدَبَّرَ كَلَامَهُ؛ عَرَفَ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، وَعَرَفَ عَظِيمَ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَرَفَ عَظِيمَ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفَ مَا عَلَيْهِ مِنْ فَرْضِ عِبَادَتِهِ؛ فَأَلْزَمَ نَفْسَهُ الْوَاجِبَ؛ فَحَذِرَ مِمَّا حَذَّرَهُ مَوْلَاهُ الْكَرِيمُ، وَرَغِبَ فِيمَا رَغَّبَهُ فِيهِ.

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَهُ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لِلْقُرْآنِ، وَعِنْدَ اسْتِمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ؛ كَانَ الْقُرْآنُ لَهُ شِفَاءً، فَاسْتَغْنَىٰ بِلَا مَالٍ، وَعَزَّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَأَنِسَ بِمَا يَسْتَوْحِشُ مِنْهُ غَيْرُهُ، وَكَانَ هَمُّهُ عِنْدَ التِّلَاوَةِ لِلسُّورَةِ إِذَا افْتَتَحَهَا: مَتَىٰ أَتَّعِظُ بِمَا أَتْلُو؟ وَلَمْ يَكُنْ

مُرَادُهُ: مَتَىٰ أَخْتِمُ السُّورَةَ؟ وَإِنَّمَا مُرَادُهُ: مَتَّىٰ أَعْقِلُ عَنِ اللهِ الْخِطَابَ؟ مَتَىٰ أَزْدَجِرُ؟ مَتَىٰ أَعْتَبِرُ؟ لأَنَّ تِلاوَتَهُ لِلْقُرْآنِ عِبَادَةٌ، وَالْعِبَادَةُ لا تَكُونُ بِغَفْلَةٍ، وَاللهُ تعالىٰ الْمُوَفِّقُ».

فَهَذَا يَلْحَقُ بِمَا مَرَّ -بِحَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- ذِكْرُهُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَهَمِّيَّةِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَحُكْمُهُ -كَمَا مَرَّ-: أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ.

❁ ❁ ❁

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

وَأَمَّا مَا يُثْمِرُهُ التَّدَبُّرُ لِلْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛ فَثَمَرَاتُ ذَلِكَ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَهَا ثِمَارٌ حَسَنَةٌ تَعُودُ عَلَىٰ تَالِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لَكِنَّ التَّدَبُّرَ يُضَاعِفُ هَذِهِ الثِّمَارَ، وَيُنَمِّيهَا، وَيُكَثِّرُهَا، وَهِيَ ثِمَارٌ عَدِيدَةٌ لَا يُمْكِنُ حَصْرُهَا، مِنْ أَبْرَزِهَا: تَعْمِيقُ جُذُورِ الْإِيمَانِ.

تَدَبُّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَزْدَادُ يَقِينًا بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ الْمُتَدَبِّرَ لَهُ وَالْمُتَأَمِّلَ فِيهِ يَسْتَعْرِضُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَلَا يَجِدُ فِيهِ أَدْنَىٰ اخْتِلَافٍ أَوْ تَنَاقُضٍ، فَلَا يَجِدُ آيَةً تُعَارِضُ أُخْرَىٰ أَوْ تَنْقُضُهَا؛ بَلْ وَلَا يَجِدُ لَفْظَةً يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُهَا بِأُخْرَىٰ، وَإِنَّمَا يَسِيرُ عَلَىٰ نَسَقٍ وَاحِدٍ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَىٰ آخِرِهِ، فَيَشْعُرُ الْمُتَأَمِّلُ الْمُتَدَبِّرُ فِيهِ أَنَّ مَصْدَرَهُ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدَ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَتَنَاقُضًا كَبِيرًا.

وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: «وَمِنْ فَوَائِدِ التَّدَبُّرِ لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنَّهُ بِذَلِكَ يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَىٰ دَرَجَةِ الْيَقِينِ، وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللهِ، لِأَنَّهُ يَرَاهُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيُوَافِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَتَرَىٰ الْحُكْمَ وَالْقِصَّةَ وَالْأَخْبَارَ تُعَادُ

فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ، وَتَجِدُهُ قَدْ جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَىٰ نَحْوٍ مِنَ التَّوَافُقِ وَالتَّصَادُقِ، لَا يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَبِذَلِكَ يُعْلَمُ كَمَالُ الْقُرْآنِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِجَمِيعِ الْأُمُورِ».

وَهَذَا الْيَقِينُ يُحَقِّقُ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢]، فَبِذَلِكَ تَتَعَمَّقُ جُذُورُ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ، وَتَزْدَادُ رُسُوخًا.

وَالتَّدَبُّرُ الْمُثْمِرُ يَعْمَلُ أَيْضًا عَلَىٰ تَرْكِيزِ الِانْتِبَاهِ فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجِهَا؛ مِمَّا يُبْعِدُ وَسْوَسَةَ الشَّيْطَانِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَشُعُورِهِ بِالْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ جَلَّوَعَلَا، فَيَكُونُ مِنَ الْمُفْلِحِينَ الْخَاشِعِينَ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

أَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِ؛ فَالتَّدَبُّرُ يَدْفَعُهُ إِنْ كَانَ مُنْصِفًا مُوَفَّقًا إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَالِاعْتِقَادِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيَخْرُجُ بِذَلِكَ مِنْ دَائِرَةِ الْإِلْحَادِ وَالشَّكِّ إِلَىٰ رِحَابِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَمِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالَةِ إِلَىٰ نُورِ الْمَعْرِفَةِ وَالْهِدَايَةِ.

وَالْمُتَحَرِّرُ مِنْ قُيُودِ التَّقْلِيدِ وَالْعِنَادِ يُزَحْزِحُهُ التَّدَبُّرُ عَنِ الْعَقِيدَةِ الْفَاسِدَةِ، فَيُحَقِّقَ لِنَفْسِهِ الْخَيْرَ وَالسَّعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالتَّدَبُّرُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ يَشْفِي الصُّدُورَ مِنْ شُكُوكٍ تَعْتَرِي الْمُرْتَابِينَ، وَيَشْفِي النُّفُوسَ مِنْ أَمْرَاضٍ كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يُعَمِّقُ جُذُورَ الْإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ، وَهُوَ -أَيْضًا- يُفْضِي إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ؛ فَإِنَّهُ يُعَرِّفُ بِالرَّبِّ تَعَالَىٰ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَعَظِيمِ تَفَضُّلِهِ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ.

وَهَذَا مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْعَلَّامَةُ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- عَنْ فَوَائِدِ التَّدَبُّرِ: «أَنَّهُ يُعَرِّفُ بِالرَّبِّ الْمَعْبُودِ، وَمَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ مِنْ سِمَاتِ النَّقْصِ، وَيُعَرِّفُ الطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَيْهِ، وَصِفَةَ أَهْلِهَا، وَمَا لَهُمْ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَيُعَرِّفُ الْعَدُوَّ الَّذِي هُوَ الْعَدُوُّ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَالطَّرِيقَ الْمُوصِلَةَ إِلَىٰ الْعَذَابِ، وَصِفَةَ أَهْلِهَا، وَمَا لَهُمْ عِنْدَ وُجُودِ أَسْبَابِ الْعِقَابِ.

وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَأَمُّلًا فِيهِ؛ ازْدَادَ عِلْمًا وَعَمَلًا وَبَصِيرَةً».

* **وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**: أَنَّهُ تَحْقِيقٌ لِلْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ جَلَّوَعَلَا.

فَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ: أَنَّهُ وَسِيلَةٌ لِمَعْرِفَةِ مَا يُرِيدُ اللهُ مِنَّا، وَكَيْفِيَّةِ عِبَادَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَوَسِيلَةٌ لِمَعْرِفَةِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْنَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هُوَ مَنْهَجُ الْحَيَاةِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ، وَهُوَ أَسَاسُ التَّشْرِيعِ الَّذِي يَجِبُ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَتَدَبَّرُوهُ، وَيَلْتَزِمُوا بِأَوَامِرِهِ، وَيَجْتَنِبُوا نَوَاهِيَهُ؛ لِيُحَقِّقُوا عِبَادَةَ اللهِ جَلَّوَعَلَا.

فِي هَذَا الشَّأْنِ قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تُنْهِضُ الْعَبْدَ إِلَىٰ رَبِّهِ بِالْوَعْدِ الْجَمِيلِ، وَتُحَذِّرُهُ وَتُخَوِّفُهُ بِوَعِيدِهِ مِنَ الْعَذَابِ الْوَبِيلِ، وَتَحُثُّهُ عَلَىٰ التَّضَمُّرِ وَالتَّخَفُّفِ لِلِقَاءِ الْيَوْمِ الثَّقِيلِ، وَتَهْدِيهِ فِي ظُلَمِ الْآرَاءِ وَالْمَذَاهِبِ إِلَىٰ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَتَصُدُّهُ عَنِ اقْتِحَامِ طُرُقِ الْبِدَعِ وَالْأَضَالِيلِ، وَتَبْعَثُهُ عَلَىٰ الِازْدِيَادِ مِنَ النِّعَمِ بِشُكْرِ رَبِّهِ الْجَلِيلِ، وَتُبَصِّرُهُ بِحُدُودِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَتُوَقِّفُهُ عَلَيْهَا؛ لِئَلَّا يَتَعَدَّاهَا فَيَقَعَ فِي الْعَنَاءِ الطَّوِيلِ، وَتُثَبِّتُ قَلْبَهُ عَنِ الزَّيْغِ وَالْمَيْلِ عَنِ الْحَقِّ وَالتَّحْوِيلِ، وَتُسَهِّلُ عَلَيْهِ الْأُمُورَ الصِّعَابَ وَالْعَقَبَاتِ الشَّاقَّةَ غَايَةَ التَّسْهِيلِ، وَتُنَادِيهِ كُلَّمَا فَتَرَتْ عَزَمَاتُهُ وَوَنَىٰ فِي سَيْرِهِ: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ، وَفَاتَكَ الدَّلِيلُ؛ فَاللَّحَاقَ اللَّحَاقَ، وَالرَّحِيلَ الرَّحِيلَ! وَتَحْدُو بِهِ وَتَسِيرُ أَمَامَهُ سَيْرَ الدَّلِيلِ، وَكُلَّمَا خَرَجَ عَلَيْهِ كَمِينٌ مِنْ كَمَائِنِ الْعَدُوِّ أَوْ قَاطِعٌ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ؛ نَادَتْهُ: الْحَذَرَ الْحَذَرَ!

فَاعْتَصِمْ بِاللهِ، وَاسْتَعِنْ بِهِ، وَقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَفِي تَأَمُّلِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ: أَضْعَافُ أَضْعَافِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

وَبِالْجُمْلَةِ؛ فَهُوَ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ».

تَأَمُّلُ الْقُرْآنِ، وَتَدَبُّرُهُ، وَتَفَهُّمُهُ أَعْظَمُ الْكُنُوزِ.

* وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: أَنَّهُ غِذَاءٌ لِلرُّوحِ، وَعِلَاجٌ يَشْفِي النُّفُوسَ مِنْ عِلَلِهَا، وَيُكْسِبُهَا الْمَنَاعَةَ الْقَوِيَّةَ إِذَا أَحْسَنَ الْمُؤْمِنُ تَدَبُّرَهُ؛ قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

فَهَذَا التَّدَبُّرُ يُخْرِجُ الْمُتَدَبِّرَ مِنَ الْحَيْرَةِ وَالْقَلَقِ النَّفْسِيِّ؛ لِيُكْسِبَهُ الشُّعُورَ بِالطُّمَأْنِينَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ، كَمَا يُزَحْزِحُهُ مِنْ حَالِ التَّعَاسَةِ إِلَىٰ السَّعَادَةِ وَرَاحَةِ الْبَالِ، كَمَا أَنَّ التَّدَبُّرَ سِلَاحٌ يَدْفَعُ الْأَخْطَارَ الْمُحْدِقَةَ بِالْفَرْدِ وَالْمُجْتَمَعِ مِنَ الدَّاخِلِ وَالْخَارِجِ؛ حَيْثُ يُسْتَعْمَلُ فِي جِهَادِ النَّفْسِ، وَمُقَاوَمَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَجِهَادِ الْكَافِرِينَ عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

فَاللهُ جَلَّوَعَلَا أَمَرَ أَنْ يُجَاهَدَ الْكُفَّارُ بِالْقُرْآنِ جِهَادًا كَبِيرًا، وَيَكُونُ هَذَا الْجِهَادُ بِحُجَجِ الْقُرْآنِ، وَأَدِلَّتِهِ، وَبَرَاهِينِهِ، وَهُوَ جِهَادُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَخَاصَّتِهِ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ تَدَبَّرُوا آيَاتِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَجَاهَدُوا بِهَا أَعْدَاءَهُ.

وَفِي هَذَا الشَّأْنِ قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «جَاهِدْهُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ جِهَادًا كَبِيرًا؛ حَتَّىٰ يَنْقَادُوا لِلْإِقْرَارِ بِمَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، وَيَدِينُوا بِهِ، وَيُذْعِنُوا لِلْعَمَلِ بِجَمِيعِهِ طَوْعًا وَكَرْهًا».

وَأَكَّدَ ذَلِكَ أَبُو السُّعُودِ رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ دَعْوَةَ كُلِّ الْعَالَمِينَ عَلَىٰ الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ جِهَادٌ كَبِيرٌ، لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ كَمًّا وَكَيْفًا».

وَمِفْتَاحُ هَذَا الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ: هُوَ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَتَسَلَّطُوا وَيُحْكِمُوا عَلَيْهِمُ الْقَبْضَةَ إِلَّا عِنْدَمَا هَجَرُوا تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَلْتَزِمُوا بِمَا جَاءَ فِيهِ.

*** وَمِنْ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ:** أَنَّهُ تَرْبِيَةٌ لِلْعُقُولِ.

فَمَعْرِفَةُ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُرَبِّي الْعُقُولَ، وَيَجْعَلُهَا تَفْهَمُ الْحَقَائِقَ النَّافِعَةَ فَتَتَّبِعُهَا، وَالضَّارَّةَ فَتَجْتَنِبُهَا، فَلَا تَمِيلُ بِهَا الْأَهْوَاءُ وَالْأَغْرَاضُ وَالْخَيَالَاتُ وَالْخُرَافَاتُ الضَّارَّةُ الْمُفْسِدَةُ لِلْعُقُولِ.

وَلَيْسَ الْعَقْلُ هُوَ الذَّكَاءَ، وَقُوَّةَ الْفِطْنَةِ، وَالْفَصَاحَةَ اللَّفْظِيَّةَ، وَإِنَّمَا الْعَقْلُ الصَّحِيحُ: هُوَ أَنْ يَعْقِلَ الْعَبْدُ فِي قَلْبِهِ الْحَقَائِقَ النَّافِعَةَ عَقْلًا يُحِيطُ بِمَعْرِفَتِهَا، وَيُمَيِّزُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ضِدِّهَا، وَيَعْرِفُ الرَّاجِحَ مِنَ الْأُمُورِ فَيُؤْثِرَهُ، وَالْمَرْجُوحَ أَوِ الضَّارَّ فَيَتْرُكَهُ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وسُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا لِأَنَّهُ يَعْقِلُ بِهِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَنْعَقِلُ بِهِ عَمَّا يَضُرُّهُ، فَمَنْ أَمَّرَ غَيْرَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ؛ قَادَهُ إِلَىٰ الْهَلَاكِ الْمُبِينِ، وَمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِالْخَيْرِ وَلَمْ يَفْعَلْهُ، أَوْ نَهَاهُ عَنِ الشَّرِّ فَلَمْ يَتْرُكْهُ؛ دَلَّ عَلَىٰ عَدَمِ عَقْلِهِ، وَجَهْلِهِ».

*** وَالتَّدَبُّرُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ:**

فَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ يُعِينُ عَلَىٰ فَهْمِ الْمُرَادِ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَيُفْسِحُ أَمَامَ الْعَقْلِ آفَاقَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَيَكْتَسِبَ قَارِئُهُ مَعَارِفَ جَدِيدَةً، وَيُلِمَّ بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَتَزِيدَ

حَصِيلَتُهُ فَهْمًا وَتَعْبِيرًا، وَيَتَحَدَّثَ وَيَكْتُبَ بِطَلَاقَةٍ وَبِشَكْلٍ صَحِيحٍ مُؤَثِّرٍ عَلَىٰ الْآخَرِينَ.

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]: «وَأَنْزَلَهُ بِهَذَا اللِّسَانِ لِنَعْقِلَهُ وَنَفْهَمَهُ، وَأَمَرَنَا بِتَدَبُّرِهِ، وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ، وَالِاسْتِنْبَاطِ لِعُلُومِهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ تَدَبُّرَهُ مِفْتَاحُ كُلِّ خَيْرٍ، وَهُوَ مُحَصِّلٌ لِلْعُلُومِ وَالْأَسْرَارِ».

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ مِفْتَاحًا لِلْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَبِهِ يُسْتَنْتَجُ كُلُّ خَيْرٍ، وَتُسْتَخْرَجُ مِنْهُ جَمِيعُ الْعُلُومِ».

* **وَالتَّدَبُّرُ فِيهِ صَقْلٌ لِلْمَوَاهِبِ، وَتَنْمِيَةٌ لِلْقُدُرَاتِ الْعَقْلِيَّةِ،** فَتَنْمُو فِي الْمُتَدَبِّرِ قُوَّةُ الْمُلَاحَظَةِ، وَمَلَكَةُ التَّفْكِيرِ، وَتَرْتَفِعُ قُدْرَتُهُ عَلَىٰ مُعَالَجَةِ الْأُمُورِ، وَيُصْبِحُ حَكَمًا عَاقِلًا عِنْدَ اخْتِلَافِ الْآرَاءِ وَالْأَفْكَارِ، كَمَا قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وَمَنِ اعْتَادَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ؛ تَنْمُو عِنْدَهُ مَلَكَةُ تَأَمُّلِ النُّصُوصِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْكِتَابِيَّةِ؛ لِتُصْبِحَ تِلْكَ الْمَلَكَةُ مُلَازِمَةً لَهُ، فَيَخْتَارُ الْعِبَارَاتِ الْمُنَاسِبَةَ فِي أَقْوَالِهِ وَكِتَابَتِهِ؛ لِتُفْهَمَ دُونَ الْتِبَاسٍ، أَوِ احْتِمَالِ تَأْوِيلَاتٍ تُخْرِجُهَا عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ، كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْعَادَةَ الْحَمِيدَةَ تَدْفَعُهُ إِلَىٰ التَّدْقِيقِ فِيمَا يَسْمَعُ أَوْ يَكْتُبُ مِنْ نُصُوصٍ، فَيُمَحِّصُ الْأَمْرَ، وَيَجْتَنِبُ مَا يُوقِعُهُ فَرِيسَةً لِكَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَمَكْرِ الْمَاكِرِينَ،

وَطَمَعِ الطَّامِعِينَ، عَلَىٰ الصَّعِيدِ الْفَرْدِيِّ وَالدَّوْلِيِّ، فِي التَّحَدُّثِ أَوْ عِنْدَ صِيَاغَةِ الْعُقُودِ الشَّخْصِيَّةِ، أَوِ الْمُعَاهَدَاتِ، أَوْ الِاتِّفَاقَاتِ وَالْقَرَارَاتِ.

فَهَذِهِ بَعْضُ ثَمَرَاتِ التَّدَبُّرِ الزَّاكِيَةِ.

فَمَا تَحَصَّنَ عَبْدٌ مِنَ الشَّيْطَانِ بِمِثْلِ مَا تَحَصَّنَ بِهِ مُتَدَبِّرُ الْقُرْآنِ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الذِّكْرِ، وَبِالذِّكْرِ يَخْنَسُ الشَّيْطَانُ وَيَهْرَبُ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ فِي حِصْنٍ حَصِينٍ وَدِرْعٍ مَتِينٍ؛ فَلَا غِنَىٰ لَهُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

لِذَلِكَ يَسْأَلُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صِيغَةِ اسْتِنْكَارٍ وَتَوْبِيخٍ عَنْ حَالِ مَنْ هَجَرَ تَدَبُّرَ نُصُوصِ الْوَحْيِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا حُرِمَ الْمُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِ الْوَحْيِ، وَاقْتِبَاسِ الْعِلْمِ مِنْ مِشْكَاتِهِ مِنْ كُنُوزِ الذَّخَائِرِ؟!

وَمَاذَا فَاتَهُمْ مِنْ حَيَاةِ الْقُلُوبِ وَاسْتِنَارَةِ الْبَصَائِرِ؟!

قَنَعُوا بِأَقْوَالٍ اسْتَنْبَطَتْهَا مَعَاوِلُ الْآرَاءِ فِكْرًا، وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ لِأَجْلِهَا زُبُرًا، وَأَوْحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا؛ فَاتَّخَذُوا لِأَجْلِ ذَلِكَ الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، دَرَسَتْ مَعَالِمُ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ فَلَيْسُوا يَعْرِفُونَهَا، وَدَثَرَتْ مَعَاهِدُهُ عِنْدَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمُرُونَهَا، وَوَقَعَتْ أَلْوِيَتُهُ وَأَعْلَامُهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ فَلَيْسُوا يَرْفَعُونَهَا، وَأَفَلَتْ كَوَاكِبُهُ النَّيِّرَةُ مِنْ آفَاقِ نُفُوسِهِمْ فَلِذَلِكَ لَا يُحِبُّونَهَا، وَكَسَفَتْ شَمْسُهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ ظُلَمِ الْآرَاءِ وَعُقَدِهَا فَلَيْسُوا يُبْصِرُونَهَا».

فَهَذِهِ بَعْضُ ثَمَرَاتِ تَدَبُّرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ؛وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَهْجُرُونَ هَذَا الْأَصْلَ الْأَصِيلَ، وَالْوَاجِبَ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنْ أَسْبَابِ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرآنِ

فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هَجَرُوا تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ، أَوْ سَمَاعَهُ، أَوْ حِفْظَهُ؛ فَإِنَّ الْأَكْثَرَ مِنْهُمْ قَدْ هَجَرُوا تَدَبُّرَهُ هَجْرًا لَمْ تَعْرِفْهُ الْأُمَّةُ مِنْ قَبْلُ، وَحَتَّىٰ الَّذِينَ يُوَاظِبُونَ عَلَىٰ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ أَوْ حِفْظِهِ؛ مَا هُوَ نَصِيبُهُمْ مِنْ تَدَبُّرِ الْمَتْلُوِّ وَالْمَحْفُوظِ؟!

وَمَا أَثَرُ الْقُرْآنِ فِي قُلُوبِهِمْ؟!

لَا رَيْبَ أَنَّ هَجْرَ التَّدَبُّرِ لَهُ أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ مُتَنَوِّعَةٌ، تَخْتَلِفُ مِنْ هَاجِرٍ لِآخَرَ، وَلَرُبَّمَا اجْتَمَعَ أَكْثَرُ مِنْ سَبَبٍ فِي شَخْصٍ وَاحِدٍ.

* **وَمِنْ أَسْبَابِ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**: الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ.

إِصْرَارُ الْعَبْدِ عَلَىٰ الذَّنْبِ، وَارْتِكَابُهُ إِيَّاهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَفَهْمِ مَعَانِيهِ.

فَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي؛ لَاسِيَّمَا الَّتِي لَهَا اتِّصَالٌ مُبَاشِرٌ بِأَدَوَاتِ وَوَسَائِلِ التَّدَبُّرِ، وَهِيَ: الْقَلْبُ، وَالسَّمْعُ، وَاللِّسَانُ، وَالْبَصَرُ.

www.menhag-un.com

فَانْهِمَاكُ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فِي الْحَرَامِ يُعَطِّلُهَا عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ، وَالِانْتِفَاعِ بِهِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٤].

فَالْأَكِنَّةُ: غِطَاءٌ لِلْقَلْبِ تَمْنَعُهُ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ.

وَالْوَقْرُ: غِطَاءٌ لِلْأُذُنِ يَمْنَعُ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ.

وَالْحِجَابُ: غِطَاءٌ لِلْعَيْنِ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَةِ الْحَقِّ.

وَتَأْثِيرُ الذُّنُوبِ فِي الْقُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ، وَالْقَلْبُ الْمَرِيضُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَغْذِيَةِ الَّتِي بِهَا حَيَاتُهُ وَصَلَاحُهُ؛ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فَالْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَصُدُّ عَنِ اتِّعَاظِ الْقُلُوبِ، وَانْشِرَاحِ الصُّدُورِ لِمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَحِكَمِهِ وَأَحْكَامِهِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ اللهُ: «أَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ».

فَصَرْفُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ -يَعْنِي: الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ- مَعْنَاهُ: أَنَّهُ يَنْزِعُ عَنْهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ، فَلَا يَفْهَمُونَهُ، وَلَا يَجِدُونَ لَهُ حَلَاوَةً وَلَا لَذَّةً؛ ذَلِكَ أَنَّ الْفَهْمَ نُورٌ، إِذَا وَرَدَ عَلَىٰ الْقَلْبِ دَنَسُ الْمَعَاصِي ارْتَحَلَ النُّورُ، فَتَحَيَّرَ عَنْ فَهْمِهِ.

وَقَدْ زَادَ ابْنُ قُدَامَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَمْرَ وُضُوحًا، فَقَالَ: «وَلْيَتَخَلَّ التَّالِي -يَعْنِي: لِكِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ- عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَكُونَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ مُتَّصِفًا بِكِبْرٍ، أَوْ مُبْتَلًى بِهَوًىٰ مُطَاعٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ ظُلْمَةِ الْقَلْبِ وَصَدَئِهِ، فَالْقَلْبُ مِثْلُ الْمِرْآةِ، وَالشَّهَوَاتُ مِثْلُ الصَّدَأِ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ مِثْلُ الصُّوَرِ الَّتِي تَتَرَاءَىٰ فِي الْمِرْآةِ، وَالرِّيَاضَةُ لِلْقَلْبِ بِإِمَاطَةِ الشَّهَوَاتِ مِثْلُ جِلَاءِ الْمِرْآةِ».

*** وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَصُدُّ الْقَلْبَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:** تَعَلُّقُهُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا، وَتَمَكُّنُ الْبِدَعِ مِنْهُ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَحْصُلُ لِلنَّاظِرِ فَهْمُ مَعَانِي الْوَحْيِ حَقِيقَةً وَلَا يَظْهَرُ لَهُ أَسْرَارُه وَفِي قَلْبِهِ بِدْعَةٌ، أو كِبْرٌ، أَوْ هَوًىٰ، أَوْ حُبُّ الدُّنْيَا، أَوْ هُوَ مُصِرٌّ عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ بالْإِيمَانِ، أَوْ هُوَ ضَعِيفُ التَّحْقِيقِ، أَوْ يَعْتَمِدُ عَلَىٰ مُفَسِّرٍ لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ، أَوْ يَرْجِعُ إِلَىٰ مَعْقُولِهِ.

وَهَذِهِ كُلُّهَا حُجُبٌ وَمَوَانِعُ بَعْضُهَا آكَدُ مِنْ بَعْضٍ».

فَأَوَّلُ أَسْبَابِ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: الْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ، وَمُوَاقَعَتِهَا، وَالِانْغِمَاسِ فِيهَا.

*** وَأَيْضًا يُؤَدِّي إِلَىٰ هَجْرِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ:** انْشِغَالُ الْقَلْبِ.

فَالْقَلْبُ الْمَشْغُولُ عَنِ الْقُرْآنِ بِغَيْرِهِ لَا يَتَأَثَّرُ بِهِ؛ لِتَشَعُّبِهِ فِي أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا، وَغَفْلَتِهِ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَكَيْفَ يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ وَهُوَ قَلْبٌ غَائِبٌ لَيْسَ بِحَاضِرٍ؟!

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

أَنْوَاعُ الْقُلُوبِ حَالَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ

وَقَدْ بَيَّنَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- **أَنْوَاعَ الْقُلُوبِ حَالَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، فَقَالَ** رَحِمَهُ اللهُ: «**النَّاسُ ثَلَاثَةٌ**: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ.

وَالثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ؛ لَكِنَّهُ مَشْغُولٌ لَيْسَ بِحَاضِرٍ، فَهَذَا أَيْضًا لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ.

وَالثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، تُلِيَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ، فَأَصْغَىٰ بِسَمْعِهِ، وَأَلْقَىٰ السَّمْعَ، وَأَحْضَرَ الْقَلْبَ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ حَاضِرُهُ، فَهَذَا الْقِسْمُ هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ».

فَحُضُورُ الْقَلْبِ وَعَدَمُ انْشِغَالِهِ شَرْطٌ فِي الِانْتِفَاعِ وَالتَّذَكُّرِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ-، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ -وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ-، وَوُجِدَ الشَّرْطُ -وَهُوَ الْإِصْغَاءُ-، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ -وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ، وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ عَنْهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ-؛ حَصَلَ الْأَثَرُ، وَهُوَ الِانْتِفَاعُ، وَالتَّذَكُّرُ».

فَهُنَالِكَ صَوَارِفُ تَحُولُ دُونَ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، مِنْهَا وَمِنْ أَعْظَمِهَا: أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ، وَالْإِصْرَارُ عَلَىٰ الذُّنُوبِ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَصُدُّ

الْقَارِئَ عَنِ اتِّعَاظِ قَلْبِهِ وَانْشِرَاحِ صَدْرِهِ لِمَوَاعِظِ الْقُرْآنِ وَحُكْمِهِ وَأَحْكَامِهِ -كَمَا مَرَّ ذِكْرُ ذَلِكَ-.

فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَأَنْ يَفْهَمَهُ، وَأَنْ يَفْقَهَ مَعَانِيَهُ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْ مَوَانِعِ الْفَهْمِ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَكُونَ مُصِرًّا عَلَىٰ ذَنْبٍ، أَوْ مُتَّصِفًا بِكِبْرٍ، أَوْ مُبْتَلًىٰ بِهَوًىٰ مُطَاعٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُسَبِّبُ ظُلْمَةَ قَلْبِهِ، ويُسَبِّبُ صَدَأَهُ، وَالْقَلْبُ كَالْمِرْآةِ، وَالشَّهَوَاتُ مِثْلُ الصَّدَأِ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ مِثْلُ الصُّوَرِ الَّتِي تَتَرَاءَىٰ فِي الْمِرْآةِ، وَالرِّيَاضَةُ لِلْقَلْبِ بِإِمَاطَةِ الشَّهَوَاتِ مِثْلُ جِلَاءِ الْمِرْآةِ.

*** وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَصُدُّ الْقَلْبَ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ:** تَعَلُّقُهُ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْمُوَ إِلَىٰ الْمَعَالِي وَعَظِيمِ الْفَضَائِلِ، وَيَشْتَاقَ وَيَطْمَئِنَّ إِلَىٰ كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَهُوَ يَعِيشُ مَعَ الْجِيَفِ، وَالنَّتَنِ، وَسَفَاسِفِ الْهِمَمِ الَّتِي تَحُومُ عَلَيْهَا هِمَمُ الْفُسَّاقِ، وَأَرَاذِلُ النَّاسِ.

وَمِنْ صُوَرِ ذَلِكَ: سَمَاعُ الْأَغَانِي، وَالتَّلَذُّذُ بِكَلِمَاتِهَا.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- عَنْ أَثَرِ سَمَاعِ الْأَغَانِي عَلَىٰ الْقَلْبِ وَالْإِيمَانِ:

«وَاللهِ إِنَّ سَمَاعَهُمْ فِي الْقَلْبِ وَالْ إِيمَانِ مِثْلُ السُّمِّ فِي الْأَبْدَانِ

فَالْقَلْبُ بَيْتُ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ حُبًّا وَإِخْلَاصًا مَعَ الْإِحْسَانِ

فَإِذَا تَعَلَّقَ بِالسَّمَاعِ أَحَالَهُ عَبْدًا لِكُلِّ فُلَانَةٍ وَفُلَانِ

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلْحَانِ الْغِنَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ لَيْسَ يَجْتَمِعَانِ».

وَلِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يُؤَدِّي إِلَىٰ انْشِغَالِ الْقَلْبِ وَشُرُودِ الذِّهْنِ، وَهَذَا يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ وَالتَّأَثُّرِ بِهِ؛ لِلْغَفْلَةِ الْحَادِثَةِ فِي الْقَلْبِ، وَلَوْ كَانَ الْقَلْبُ حَيًّا وَلَكِنَّهُ كَانَ مَشْغُولًا عَنْهُ بِغَيْرِهِ؛ فَهُوَ غَائِبُ الْقَلْبِ لَيْسَ حَاضِرَهُ؛ وَلِذَلِكَ لَا تَحْصُلُ لَهُ الذِّكْرَىٰ مَعَ اسْتِعْدَادِهِ ووُجُودِ قَلْبِهِ.

مِثْلُهُ الْبَصِيرُ الطَّامِحُ بِبَصَرِهِ إِلَىٰ غَيْرِ الْمَطْلُوبِ، فَهَذَا مَعَ تَمَتُّعِهِ بِبَصَرِهِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَرَىٰ مَطْلُوبَهُ.

* **مِنْ أَكْثَرِ الشَّوَاغِلِ الَّتِي تُذْكَرُ حِينَ التِّلَاوَةِ**: أَنْ يَكُونَ هَمُّ الْقَارِئِ إِتْمَامَ السُّورَةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ الْفَهْمَ وَالِاتِّعَاظَ وَالْعِبْرَةَ الَّتِي تَحْوِيهَا الْآيَاتُ؛ لِذَلِكَ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا بْنَ آدَمَ؛ كَيْفَ يَرِقُّ قَلْبُكَ وَإِنَّمَا هِمَّتُكَ فِي آخِرِ السُّورَةِ؟!».

وَقَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «**النَّاسُ ثَلَاثَةٌ**: رَجُلٌ قَلْبُهُ مَيِّتٌ.

وَالثَّانِي: رَجُلٌ لَهُ قَلْبٌ حَيٌّ؛ غَيْرَ أَنَّهُ مَشْغُولٌ غَيْرُ حَاضِرٍ.

وَالثَّالِثُ: رَجُلٌ حَيُّ الْقَلْبِ مُسْتَعِدٌّ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُصْغِي بِسَمْعِهِ، وَيُلْقِي السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، أَحْضَرَ الْقَلْبَ، وَلَمْ يَشْغَلْهُ بِغَيْرِ فَهْمِ مَا يَسْمَعُ، فَهُوَ شَاهِدُ الْقَلْبِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْتَفِعُ بِالْآيَاتِ».

وَكَمَا مَرَّ فِي كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِذَا حَصَلَ الْمُؤَثِّرُ -وَهُوَ الْقُرْآنُ-، وَالْمَحَلُّ الْقَابِلُ -وَهُوَ الْقَلْبُ الْحَيُّ-، وَوُجِدَ الشَّرْطُ -وَهُوَ الْإِصْغَاءُ-، وَانْتَفَىٰ الْمَانِعُ -وَهُوَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ وَذُهُولُهُ عَنْ مَعْنَىٰ الْخِطَابِ، وَانْصِرَافُهُ عَنْهُ إِلَىٰ شَيْءٍ آخَرَ-، إِذَا كَانَ ذَلِكَ؛ حَصَلَ الْأَثَرُ، وَهُوَ الِانْتِفَاعُ، وَالتَّذَكُّرُ».

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

يَنْبَغِي عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ الْأَدَوَاتِ وَحِيَازَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ رَبِّ الْأَرْبَابِ، وَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِينُ عَلَىٰ ذَلِكَ: أَنْ يَعْرِفَ الصَّوَارِفَ الَّتِي تَصْرِفُهُ عَنِ التَّدَبُّرِ.

مَرَّ ذِكْرُ بَعْضِهَا، وَمِنْهَا: الْجَهْلُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

فَالْجَهْلُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ صَارِفٌ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَتَفَهُّمِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وَسَبَبُ تَنَزُّلِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: هُوَ أَنَّهَا أَفْصَحُ اللُّغَاتِ، وَأَبْيَنُهَا، وَأَوْسَعُهَا، وَأَكْثَرُهَا تَأْدِيَةً لِلْمَعَانِي الَّتِي تَقُومُ بِالنُّفُوسِ؛ فَلِهَذَا أَنْزَلَ أَشْرَفَ الْكُتُبِ بِأَشْرَفِ اللُّغَاتِ.

وَإِذَا كَانَ الْقَارِئُ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَلَا يُدْرِكُ أَسَالِيبَ كَلَامِهِمْ؛ فَأَنَّىٰ لَهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَأَنْ يَعْقِلَ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْخِطَابَ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]؟!

وَجُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَتَرَاكِيبِهِ لَا يُؤَدَّىٰ إِلَّا بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِهِ، كَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «التَّفْسِيرُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: وَجْهٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَ شَيْخَ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَعَلُّمَ الْعَرَبِيَّةِ وَتَعْلِيمَ الْعَرَبِيَّةِ فَرْضٌ عَلَىٰ الْكِفَايَةِ، وَكَانَ السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَىٰ اللَّحْنِ؛ فَنَحْنُ مَأْمُورُونَ أَمْرَ إِيجَابٍ أَوْ أَمْرَ اسْتِحْبَابٍ أَنْ نَحْفَظَ الْقَانُونَ الْعَرَبِيَّ، وَنُصْلِحَ الْأَلْسُنَ الْمَائِلَةَ عَنْهُ، فَيَحْفَظُ لَنَا طَرِيقَةَ فَهْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ».

وَقَدْ جَعَلَ أَهْلُ الْعِلْمِ مَعْرِفَةَ الْعَرَبِيَّةِ شَرْطًا لِمَنْ أَرَادَ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ:

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا أُوتَىٰ بِرَجُلٍ غَيْرِ عَالِمٍ بِلُغَاتِ الْعَرَبِ يُفَسِّرُ كِتَابَ اللهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ نَكَالًا».

وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «إِعْرَابُ الْقُرْآنِ أَصْلٌ فِي الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ بِذَلِكَ تَقُومُ مَعَانِيهِ الَّتِي هِيَ الشَّرْعُ».

www.menhag-un.com

الْغَايَةُ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

وَعَنِ الْغَايَةِ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْعَرَبِيَّةُ إِنَّمَا احْتَاجَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهَا لِأَجْلِ خِطَابِ الرَّسُولِ بِهَا، فَإِذَا أُعْرِضَ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ؛ كَانَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ حَطَبِ جَهَنَّمَ».

فَالْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ: هُوَ مَعْرِفَةُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَنْ فَاتَهُ تَحْقِيقُ هَذَا الْمَقْصِدِ؛ فَقَدْ أَمْضَىٰ عُمُرَهُ فِي غَيْرِ مَا طَائِلٍ؛ بَلْ رُبَّمَا كَانَ تَعَلُّمُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ؛ كَحَالِ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ لِلطَّعْنِ فِي الْقُرْآنِ وَعُلُومِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَذْنَابِهِمْ، فَهَؤُلَاءِ يَتَعَلَّمُونَ الْعَرَبِيَّةَ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي حِذْقِهَا، وَالْإِحَاطَةِ بِكَثِيرٍ مِنْ قَوَانِينِهَا وَمَعَانِيهَا؛ حَتَّىٰ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَيَذْهَبُونَ إِلَىٰ الْجَامِعَاتِ الشِّرْكِيَّةِ الْكُفْرِيَّةِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَعُودُوا وَمَعَهُمْ شَهَادَاتٌ بِأَنَّهُمْ صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْعَرَبِيَّةِ!!

فَيَذْهَبُونَ لِتَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ أَيْدِي الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَذْنَابِهِمْ!!

وَهَؤُلَاءِ إِنَّمَا تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ لِيَطْعَنُوا فِي الْقُرْآنِ، وَفِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ.

*** وَمِنَ الْمَفَاسِدِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَىٰ جَهْلِ الْقَارِئِ أَحْيَانًا بِقَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ:** مَا وَرَدَ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «قَدِمَ أَعْرَابِيٌّ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ

الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَقَالَ: مَنْ يُقْرِئُنِي مِمَّا أُنْزِلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ قَالَ: فَأَقْرَأَهُ رَجُلٌ (بَرَاءَة) -يَعْنِي: سُورَةَ التَّوْبَةِ، فَقَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ قَرَأَهَا بِالْجَرِّ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَوَقَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْ رَسُولِهِ؟! فَإِنْ يَكُنِ اللهُ بَرِئَ مِنْ رَسُولِهِ فَأَنَا أَبْرَأُ مِنْهُ.

فَبَلَغَ عُمَرَ مَقَالَةُ الْأَعْرَابِيِّ، فَدَعَاهُ، فَقَالَ: يَا أَعْرَابِيُّ؛ أَتَبْرَأُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ إِنِّي قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ وَلَا عِلْمَ لِي بِالْقُرْآنِ، فَسَأَلْتُ: مَنْ يُقْرِئُنِي؟ فَأَقْرَأَنِي هَذَا سُورَةَ (بَرَاءَة)، فَقَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، فَقُلْتُ: أَوَقَدْ بَرِئَ اللهُ مِنْ رَسُولِهِ؟! إِنْ يَكُنِ اللهُ بَرِئَ مِنْ رَسُولِهِ فَأَنَا أَبْرَأُ مِنْهُ.

فَقَالَ عُمَرُ: لَيْسَ هَكَذَا يَا أَعْرَابِيُّ.

قَالَ: فَكَيْفَ هِيَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟

قَالَ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٣].

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَأَنَا -وَاللهِ- أَبْرَأُ مِمَّا بَرِئَ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُ.

فَأَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَلَّا يُقْرِئَ النَّاسَ إِلَّا عَالِمٌ بِاللُّغَةِ، وَأَمَرَ أَبَا الْأَسْوَدِ فَوَضَعَ النَّحْوَ».

وَالْمَشْهُورُ: أَنَّ الَّذِي أَمَرَ أَبَا الْأَسْوَدِ بِوَضْعِ النَّحْوِ: هُوَ عَلِيٌّ رضي الله عنه.

لَعَلَّهُ أُمِرَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ عُمَرَ رضي الله عنه.

فَمَنْ جَهِلَ أُصُولَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَوَاعِدَهَا، وَلَمْ يُمَيِّزِ الْفَاعِلَ مِنَ الْمَفْعُولِ -مَثَلًا-، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ، مَنْ جَهِلَ ذَلِكَ كُلَّهُ؛ كَيْفَ يَفْهَمُ قَوْلَ اللهِ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]؟!

فَإِذَا كَانَ جَاهِلًا لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ؛ فَكَيْفَ يَفْهَمُ هَذَا الْقَوْلَ الْإِلَهِيَّ الْكَرِيمَ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾؟!

كَذَلِكَ: كَيْفَ يَفْهَمُ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهُ، وَيَفْهَمُ مُرَادَهُ مِنْهُ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؟!

فَالْجَهْلُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الصَّادَّةِ الصَّارِفَةِ عَنْ تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ، وَفِقْهِهِ، وَفَهْمِهِ.

* **وَمِمَّا -أَيْضًا- يَصْرِفُ عَنْ تَفَهُّمِ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرِهِ**: أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَقْصُرُ الْخُشُوعَ فِي رَمَضَانَ، أَوْ فِي الْقُنُوتِ، أَوْ عِنْدَ خُشُوعِ الْإِمَامِ، أَوْ عِنْدَ آيَاتِ الْعَذَابِ وَذِكْرِ النَّارِ وَأَهْوَالِ الْقِيَامَةِ.

www.menhaj.net

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَسْبَابَ الْخُشُوعِ وَدَوَاعِيَهُ مُتَعَدِّدَةٌ، فَفِعْلُهُ ﷺ عِنْدَ التِّلَاوَةِ فِيهِ خُشُوعٌ وَتَدَبُّرٌ، فَهُوَ يُنَزِّهُ وَيُسَبِّحُ عِنْدَ آيَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَيَسْأَلُ اللهَ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَ ذِكْرِ جَنَّتِهِ وَإِنْعَامِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَسْتَعِيذُ عِنْدَ ذِكْرِ النَّارِ وَالْعَذَابِ.

ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْوَاعًا شَتَّىٰ يَحْصُلُ عِنْدَهَا الْخُشُوعُ وَالتَّأَثُّرُ بِالْقُرْآنِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: «الشَّهْقَةُ الَّتِي تَعْرِضُ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ أَوْ غَيْرِهِ

*** لَهَا أَسْبَابٌ:**

أَحَدُهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ عِنْدَ السَّمَاعِ دَرَجَةٌ لَيْسَتْ لَهُ، فَيَرْتَاحَ إِلَيْهَا، فَتَحْدُثَ لَهُ شَهْقَةُ شَوْقٍ.

ثَانِيهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ ذَنْبٌ ارْتَكَبَهُ، فَتَحْدُثَ لَهُ شَهْقَةُ خَوْفٍ وَخَشْيَةٍ.

ثَالِثُهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ نَقْصٌ فِيهِ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ دَفْعِهِ عَنْهُ، فَيُحْدِثَ لَهُ ذَلِكَ شَهْقَةَ حُزْنٍ وَنَدَمٍ.

رَابِعُهَا: أَنْ يَلُوحَ لَهُ كَمَالُ صِفَاتِ خَالِقِهِ، وَيَرَىٰ الطَّرِيقَ إِلَيْهِ مَسْدُودًا عَنْهُ، فَيُحْدِثَ لَهُ شَهْقَةَ أَسَفٍ وَحَسْرَةٍ.

خَامِسُهَا: أَنْ يَكُونَ قَدِ انْشَغَلَ عَنْ رَبِّهِ، وَاشْتَغَلَ بِغَيْرِ ذِكْرِهِ، فَيُذَكِّرُهُ الْقُرْآنُ رَبَّهُ، فَيَلُوحُ لَهُ جَمَالُهُ، وَيَرَىٰ بَابَهُ مَفْتُوحًا وَالطَّرِيقَ ظَاهِرًا، فَيُحْدِثَ لَهُ شَهْقَةَ فَرَحٍ وَسُرُورٍ.

www.menhag-un.com

وَبِكُلِّ حَالٍ فَسَبَبُ الشَّهْقَةِ: قُوَّةُ الْوَارِدَاتِ عَلَىٰ الْقَلْبِ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ، مَعَ ضَعْفِ الْقَلْبِ عَنْ تَحَمُّلِهَا، وَالْقُصُورِ فِيمَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَمَا يَلْزَمُهَا مِنَ الْأَعْمَالِ.

وَالْخَيْرُ: أَنْ تَعْمَلَ تِلْكَ الْوَارِدَاتُ فِي بَاطِنِهِ دَاخِلًا، وَذَلِكَ أَقْوَىٰ لَهُ وَأَدْوَمُ، فَإِنْ أَظْهَرَهُ؛ ضَعُفَ أَثَرُهُ، وَأَوْشَكَ انْقِطَاعُهُ.

هَذَا حُكْمُ الشَّهْقَةِ مِنَ الصَّادِقِ؛ فَإِنَّ الشَّاهِقَ إِمَّا صَادِقٌ، أَوْ مُوَافِقٌ، أَوْ مُنَافِقٌ».

* **وَمِمَّا يَصْرِفُ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ** جَلَّوَعَلَا: أَنْ يَتْرُكَ النَّاسُ التَّدَبُّرَ تَوَرُّعًا عَنِ الْقَوْلِ فِي كَلَامِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَالِاعْتِقَادُ أَنَّ مُهِمَّةَ الْقَارِئِ تَنْحَصِرُ فِي الْقِرَاءَةِ دُونَ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، مَعَ تَرْكِ التَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِي الْمَعْنَىٰ لِلْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ؛ يَصْرِفُ الْقَارِئُ بِسَبَبِ ذَلِكَ هِمَّتَهُ إِلَىٰ كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ، وَسَلَامَةِ التِّلَاوَةِ مَعَ غَيْرِ مَا تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَهُّمٍ لِمَا يَتْلُوهُ وَيَقْرَؤُهُ.

لِذَلِكَ قَالَ ابْنُ هُبَيْرَةَ: «وَمِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ: تَنْفِيرُهُ عِبَادَ اللهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ الْهُدَىٰ وَاقِعٌ عِنْدَ التَّدَبُّرِ، فَيَقُولُ: هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ؛ حَتَّىٰ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: أَنَا لَا أَتَكَلَّمُ فِي الْقُرْآنِ تَوَرُّعًا.

لِذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ لَهَا تَأْوِيلًا لَا نَفْهَمُهُ وَلَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا نَتْلُوهُ مُتَعَبِّدِينَ بِأَلْفَاظِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مِنْهُ حَرَجٌ».

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمِنْ حَيْثُ كَانَ الْقُرْآنُ مُعْجِزًا، أَفْحَمَ الْفُصَحَاءَ وَأَعْجَزَ الْبُلَغَاءَ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ؛ فَذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ عَرَبِيًّا جَارِيًا عَلَىٰ أَسَالِيبِ كَلَامِ الْعَرَبِ، مُيَسَّرًا لِلْفَهْمِ فِيهِ عَنِ اللهِ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَىٰ؛ لَكِنْ بِشَرْطِ الدُّرْبَةِ فِي اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ؛ إِذْ لَوْ خَرَجَ بِالْإِعْجَازِ عَنْ إِدْرَاكِ الْعُقُولِ لمَعَانِيهِ؛ لَكَانَ خِطَابُهُمْ بِهِ مِنْ تَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ، وَذَلِكَ مَرْفُوعٌ عَنِ الْأُمَّةِ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ الْوُجُوهِ الْإِعْجَازِيَّةِ فِيهِ؛ إِذْ مِنَ الْعَجَبِ: إِيرَادُ كَلَامٍ مِنْ جِنْسِ كَلَامِ الْبَشَرِ فِي اللِّسَانِ وَالْمَعَانِي وَالْأَسَالِيبِ، مَفْهُومٍ مَعْقُولٍ، ثُمَّ لَا يَقْدِرُ الْبَشَرُ عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [الْقَمَرِ: ١٧، ٢٢].

وَعَلَىٰ أَيِّ وَجْهٍ فُرِضَ إِعْجَازُهُ؛ فَذَلِكَ غَيْرُ مَانِعٍ مِنَ الْوُصُولِ إِلَىٰ فَهْمِهِ، وَتَعَقُّلِ مَعَانِيهِ، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فَهَذَا يَسْتَلْزِمُ إِمْكَانَ الْوُصُولِ إِلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ».

وَقَالَ الشِّنْقِيطِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَوْلُ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ: إِنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَتَفَهُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِ خَاصَّةً.

قَالَ: هَذَا قَوْلٌ لَا مُسْتَنَدَ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ أَصْلًا.

بَلِ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ: أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَهُّمِ، وَإِدْرَاكِ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَلُّمُهُمَا، وَالْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ مِنْهُمَا.

www.menhaj-ua.com

وَمِمَّا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: أَنَّ الْمُخَاطَبِينَ الْأَوَّلِينَ بِهِ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ: هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَالْكُفَّارُ، ولَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مُسْتَكْمِلًا لِشُرُوطِ الِاجْتِهَادِ الْمُقَرَّرَةِ، فَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْتَفَعَ بِالْعَمَلِ بِهِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَدْيِهِ إِلَّا للمجتهدين بِالاصْطِلَاحِ الْأُصُولِيِّ؛ لَمَا وَبَّخَ اللهُ الْكَفَّارُ وَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ عَدَمَ الِاهْتِدَاءِ بِهُدَاهُ، وَلَمَا أَقَامَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ بِهِ -لِأَنَّهُ نَزَلَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْهِدَايَةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَإِذَا كَانُوا لَا يَفْهَمُونَهُ، وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهُ؛ فَإِنَّ الْحُجَّةَ لَا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ-».

ثُمَّ فَصَّلَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْقَوْلَ فِي الرَّدِّ عَلَىٰ مَنْ قَالَ بِذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «فَالْقَوْلُ بِمَنْعِ الْعَمَلِ بِمَا عَلِمَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حَتَّىٰ يُحَصِّلَ رُتْبَةَ الِاجْتِهَادِ الْمُطْلَقِ؛ هُوَ عَيْنُ السَّعْيِ فِي حِرْمَانِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الانْتِفَاعِ بِنُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ».

فَيَجِبُ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ يَخَافُ الْعَرْضَ عَلَىٰ رَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِيهِ؛ لِيَرَىٰ لِنَفْسِهِ الْمَخْرَجَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ الْعُظْمَىٰ والطامَّةِ الْكُبْرَىٰ الَّتِي عَمَّتْ جُلَّ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَعْمُورَةِ، وَهِيَ ادِّعَاءُ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْكِتَابِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ اسْتِغْنَاءً تَامًّا فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ -مِنْ عِبَادَاتٍ، وَمُعَامَلَاتٍ، وَحُدُودٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ- بِالْمَذَاهِبِ الْمُدَوَّنَةِ.

وَبِنَاءً عَلَىٰ الْمُقَدِّمَتَيْنِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنَّ الْعَمَلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَجُوزُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ.

وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ الْمُجْتَهِدِينَ مَعْدُومُونَ.

يَعْنِي: هُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْعَمَلَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ -بَلْ إِنَّ فَهْمَ وَفِقْهَ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ- لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمُجْتَهِدِينَ، ثُمَّ قَالُوا: سُدَّ بابُ الِاجْتِهَادِ؛ إِذًا فَلَيْسَ هُنَالِكَ مُجْتَهِدٌ!!

فَيَنْتُجُ مِنْ هَاتَيْنِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ: أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ مُتَدَبِّرٌ وَلَا مُتَفَهِّمٌ لِآيَاتِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا لِأَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ!!

إِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ أَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ لَا حَاجَةَ إِلَىٰ تَعَلُّمِهِمَا، وَأَنَّهُمَا يُغْنِي عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا؛ فَهَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، وَمُنْكَرٌ مِنَ الْقَوْلِ وَزُورٌ.

وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ أَنَّ تَعَلُّمَهُمَا صَعْبٌ لَا يُقْدَرُ عَلَيْهِ؛ فَهَذَا أَيْضًا زَعْمٌ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ تَعَلُّمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَيْسَرُ مِنْ تَعَلُّمِ مَسَائِلِ الْآرَاءِ وَالِاجْتِهَادِ الْمُنْتَشِرَةِ، مَعَ كَوْنِهَا فِي غَايَةِ التَّعْقِيدِ وَالْكَثْرَةِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]؛ فَهُوَ كِتَابٌ مُيَسَّرٌ بِتَيْسِيرِ اللهِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لِلْعَمَلِ بِهِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ هُوَ النُّورُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ لِيُسْتَضَاءَ بِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

وَلْتَعْلَمْ أَنَّ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ فِي هَذَا الزَّمَانِ أَيْسَرُ مِنْهُ بِكَثِيرٍ فِي الْقُرُونِ الْأُولَىٰ؛ لِسُهُولَةِ مَعْرِفَةِ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ، فَكُلُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ قَدْ عُلِمَ مَا جَاءَ فِيهَا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَكِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ.

وَاجْتَهَدَ الصَّنْعَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ حُجَجٍ يُرَدُّ بِهَا عَلَىٰ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ، وَمُلَخَّصُ مَا قَالَ: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كَمَّلَ عُقُولَ الْعِبَادِ، وَرَزَقَهُمْ فَهْمَ كَلَامِهِ، ثُمَّ إِنَّ فَهْمَ كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ عِنْدَ قَرْعِهَا الْأَسْمَاعَ لَا يَحْتَاجُ فِي مَعْنَاهَا إِلَىٰ عِلْمِ النَّحْوِ، وَلَا إِلَىٰ عِلْمِ الْأُصُولِ؛ بَلْ فِي الْأَفْهَامِ وَالطِّبَاعِ وَالْعُقُولِ مَا يَجْعَلُهَا تُسَارِعُ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ الْمُرَادِ؛ فَإِنَّ مَنْ قَرَعَ سَمْعَهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]؛ يُفْهَمُ مَعْنَاهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ (مَا) كَلِمَةُ شَرْطٍ، وَ (تُقَدِّمُوا) مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ شَرْطُهَا، وَ (تَجِدُوهُ) مَجْزُومٌ بِهَا؛ لِأَنَّهُ جَزَاؤُهَا، وَمِثْلُهَا كَثِيرٌ».

فَأَنْتَ تَفْهَمُ مِنْهَا مَعْنًىٰ مَكْشُوفًا مِنْ غَيْرِ مَا مَعْرِفَةٍ بِهَذَا كُلِّهِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠].

«ثُمَّ إِنَّكَ تَرَىٰ الْعَامَّةَ يَسْتَفْتُونَ الْعَالِمَ، وَيَفْهَمُونَ كَلَامَهُ وَجَوَابَهُ وَهُوَ كَلَامٌ غَيْرُ مُعْرَبٍ فِي الْأَغْلَبِ؛ بَلْ تَرَاهُمْ يَسْمَعُونَ الْقُرْآنَ، فَيَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ، وَيَبْكُونَ لِقَوَارِعِهِ وَمَا حَوَاهُ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِعْرَابًا وَلَا غَيْرَهُ؛ بَلْ رُبَّمَا كَانَ مَوْقِعُ مَا يَسْمَعُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ أَعْظَمَ مِنْ مَوْقِعِهِ فِي قُلُوبِ مَنْ حَقَّقَ قَوَاعِدَ الِاجْتِهَادِ، وَبَلَغَ الذَّكَاءَ وَالِانْتِقَادَ.

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعَامَّةَ يَحْضُرُونَ الْخُطَبَ فِي الْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ، وَيَذُوقُونَ الْوَعْظَ، وَيَفْهَمُونَهُ، وَيُفَتِّتُ مِنْهُمُ الْأَكْبَادَ، وَتَدْمَعُ مِنْهُمُ الْعُيُونُ، فَيَكْثُرُ مِنْهُمُ

الْبُكَاءُ وَالنَّحِيبُ، ثُمَّ إِنَّكَ تَرَاهُمْ يَقْرَءُونَ كُتُبًا مُؤَلَّفَةً مِنَ الْفُرُوعِ الْفِقْهِيَّةِ، وَيَفْهَمُونَ مَا فِيهَا، وَيَعْرِفُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهَا، وَيَرْجِعُونَ فِي الْفَتْوَىٰ وَالْخُصُومَاتِ إِلَيْهَا.

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَا الَّذِي خَصَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِالْمَنْعِ عَنْ مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَفَهْمِ تَرَاكِيبِهَا وَمَبَانِيهَا، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ اسْتِخْرَاجِ مَا فِيهَا؛ حَتَّىٰ جُعِلَتْ مَعَانِيهَا كَالْمَقْصُورَاتِ فِي الْخِيَامِ، وَقَدْ ضُرِبَتْ دُونَهَا السُّجُوفُ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَيْهَا إِلَّا تَرْدِيدُ أَلْفَاظِهَا وَالْحُرُوفِ، وَأَنَّ اسْتِنْبَاطَ مَعَانِيهَا قَدْ صَارَ حِجْرًا مَحْجُورًا، وَحَرَمًا مُحَرَّمًا مَحْصُورًا؟!!».

وَلَمْ يَعْلَمْ مَنْ حَرَمَ نَفْسَهُ التَّدَبُّرَ خَوْفًا مِنَ الْقَوْلِ عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَنَّ تَفْسِيرَ مُرَادِ اللهِ وَاسْتِنْبَاطَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ هِيَ مَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ بِالْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ، وَهُنَاكَ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ مِنَ الْفَهْمِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّذَكُّرِ وَالِادِّكَارِ وَالِاتِّعَاظِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ لَا عُذْرَ لَهُ فِي تَرْكِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُطْلَبْ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي كِتَابِ اللهِ جَلَّوَعَلَا وَأَنْ يَتَدَبَّرَ فِيهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَنْبِطَ الْأَحْكَامَ، وَلَا مِنْ أَجْلِ أَنْ يَحُلَّ الْمُعْضِلَاتِ، وَإِنَّمَا هُنَالِكَ مَرْتَبَةٌ دُونَ هَذِهِ الَّتِي هِيَ لِلْعُلَمَاءِ وَالْمُفَسِّرِينَ، وَهَذِهِ لَا يُعْذَرُ مَنْ تَرَكَهَا عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ الْأَثِيمِ.

تَرْكُ التَّدَبُّرِ تَوَرُّعًا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ عَنِ التَّدَبُّرِ فِي كَلَامِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَهَذَا مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ؛ أَنَّهُ يُنَفِّرُ عِبَادَ اللهِ مِنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-: «وَمَنْ قَالَ: إِنَّ لَهُ تَأْوِيلًا لَا نَفْهَمُهُ وَلَا نَعْلَمُهُ، وَإِنَّمَا نَتْلُوهُ مُتَعَبِّدِينَ بِأَلْفَاظِهِ؛ فَفِي قَلْبِهِ مِنَ الْقُرْآنِ حَرَجٌ».

وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُ مَا قَالَهُ الشَّاطِبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَا بَيَّنَهُ وَوَضَّحَهُ الشِّنْقِيطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ- فِي رَدِّهِ عَلَىٰ مُتَأَخِّرِي الْأُصُولِيِّينَ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ التَّدَبُّرِ، وَبَيْنَ تَفْسِيرِ مُرَادِ اللهِ وَاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فَهَذِهِ مُهِمَّةُ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ، وَهُنَاكَ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ مِنَ الْفَهْمِ وَالِاعْتِبَارِ وَالتَّذَكُّرِ وَالِادِّكَارِ وَالِاتِّعَاظِ وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ فِي تَرْكِهَا.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com

مِنَ الصَّوَارِفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ

* **مِمَّا يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ**: هَجْرُ كُتُبِ التَّفْسِيرِ.

فَمَنْ هَجَرَ كُتُبَ التَّفْسِيرِ وَلَمْ يُطَالِعْهَا، وَلَمْ يَعْرِفْ أَسْبَابَ النُّزُولِ، أَوِ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ؛ فَكَيْفَ يَحْصُلُ لَهُ تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ؟! وَمَتَىٰ يُوَفَّقُ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْمُرَادِ؟!

لَا غَرْوَ أَنْ تَعَجَّبَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّنْ أَرَادَ التَّلَذُّذَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ، فَقَالَ: «إِنِّي أَعْجَبُ مِمَّنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ؛ كَيْفَ يَلْتَذُّ بِقِرَاءَتِهِ؟!».

صَاحِبُ هَذَا الْمَنْهَجِ لَا يَسْلَمُ غَالِبًا مِنَ الْخَطَأِ فِي فَهْمِ الْآيَاتِ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا، أَوِ الْخَطَأِ فِي تَطْبِيقِ بَعْضِ الْآيَاتِ، وَالْعَمَلِ بِهَا.

مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ: مَا وَرَدَ عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ، قَالَ: «كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَىٰ أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَىٰ الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ صَفِّ الرُّومِ حَتَّىٰ دَخَلَ فِيهِ، فَصَاحَ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ

الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ: الْإِقَامَةَ عَلَىٰ الْأَمْوَالِ، وَإِصْلَاحَهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ فِي سَبِيلِ اللهِ.

فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّىٰ دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ».

الشَّاهِدُ مِنْ هَذَا الْإِيرَادِ: أَنَّ بَعْضَ التَّابِعِينَ تَأَوَّلَ الْآيَةَ عَلَىٰ غَيْرِ مُرَادِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَهُمْ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُونِ، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ عَصْرِ التَّنْزِيلِ؛ فَكَيْفَ بِزَمَانِنَا نَحْنُ؟! صَارَتِ الْأَلْسُنُ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْأَعْجَمِيَّةِ مِنْهَا إِلَىٰ الْعَرَبِيَّةِ!!

فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ؛ لِيَحْصُلَ لَنَا فَهْمُ كَلَامِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا.

* **وَمِمَّا يَصْرِفُ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ**: التَّشَاغُلُ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ وَالْآثَارَ الْوَارِدَةَ فِي فَضَائِلِ التِّلَاوَةِ تُشَجِّعُ عَلَىٰ الْإِكْثَارِ مِنْهَا، وَيُعَضِّدُ ذَلِكَ: اقْتِصَارُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُذَكِّرِينَ وَالْوُعَّاظِ عَلَىٰ الرِّوَايَاتِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ السَّلَفِ فِي كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ وَعَدَدِ الْخَتْمَاتِ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ، مَعَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ نَقْلِ نَهْيِ

السَّلَفِ عَنْ سُرْعَةِ الْقِرَاءَةِ، وَإِعْرَاضِهِمْ كَذَلِكَ عَمَّا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ فِي تَعْظِيمِ شَأْنِ التَّدَبُّرِ وَالْحَضِّ عَلَيْهِ، وَمَا أُثِرَ عَنْهُمْ مِنْ تَفَاعُلِهِمْ وَوُقُوفِهِمْ عِنْدَ مَعَانِي الْآيَاتِ.

فَفِي الْحَثِّ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ وَأَحْوالٌ لِلسَّلَفِ هِيَ أَكْثَرُ عَدَدًا مِنْ مَثِيلَاتِهَا الدَّالَّةِ عَلَىٰ فَضْلِ الْقِرَاءَةِ؛ بَلْ أَقْوَىٰ حُجَّةً وَأَعْمَقُ أَثَرًا، لَوْ تَأَمَّلها الناس مَا اقْتَصَرُوا عَلَىٰ التِّلَاوَةِ، وَلَمَا هَجَرُوا تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَنْبَغِي لِلْقَارِئِ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ، وَالتَّدَبُّرَ، وَالْخُضُوعَ.

فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ».

فَاسْتِحْبَابُ كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَىٰ تَرْكِ التَّدَبُّرِ؛ لِذَا جَاءَ النَّهْيُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ؛ مِنْ أَجْلِ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَثُّرِ وَالِانْتِفَاعِ بِالْآيَاتِ.

فَكَثْرَةُ التِّلَاوَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَىٰ هَجْرِ التَّدَبُّرِ حَالَةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ؛ بَلْ هِيَ مِنْ تَلْبِيسِ إِبْلِيسَ عَلَىٰ الْقُرَّاءِ.

وَفِي ذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ لَبَّسَ عَلَىٰ قَوْمٍ بِكَثْرَةِ التِّلَاوَةِ، فَهُمْ يَهُذُّونَهُ هَذًّا مِنْ غَيْرِ تَرْتِيلٍ وَلَا تَثَبُّتٍ، وَهَذِهِ حَالَةٌ لَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ».

وَقَالَ أَيْضًا: «وَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَجْمَعُ النَّاسَ، وَيُقِيمُ شَخْصًا، وَيَقْرَأُ فِي النَّهَارِ الطَّوِيلِ ثَلَاثَ خَتْمَاتٍ، فَإِنْ قَصَّرَ عِيبَ، وَإِنْ أَتَمَّ مُدِحَ، وَتَجْتَمِعُ الْعَوَامُّ لِذَلِكَ

وَيُحَسِّنُونَهُ، وَيُرِيهِمْ إِبْلِيسُ أَنَّ فِي كَثْرَةِ التِّلَاوَةِ ثَوَابًا، وَهَذَا مِنْ تَلْبِيسِهِ؛ لِأَنَّ الْقِرَاءَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، لَا لِلتَّحْسِينِ بِهَا، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَىٰ تَمَهُّلٍ؛ قَالَ ﷻ: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وَقَالَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]».

فَقَصْرُ الْهِمَّةِ عَلَىٰ كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ فَقَطْ عَمَلًا بِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَحَّتْ فِي فَضْلِهَا؛ وَلَكِنَّهُ هَجْرٌ لِآيَاتٍ وَأَحَادِيثَ صَرَّحَتْ بِالْحَثِّ عَلَىٰ التَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ وَالتَّأَثُّرِ بِالْمَعَانِي وَالْعِظَاتِ؛ كُلُّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ الصَّرْفِ عَنْ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.

النَّبِيُّ ﷺ ذَكَرَ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَفْهَمُ الْقُرْآنَ إِذَا قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ يَجْتَهِدُ فِي الْوُصُولِ إِلَىٰ غَايَةٍ تَغَيَّاهَا -وَهِيَ نِهَايَةُ السُّورَةِ- مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْقَهَ مِمَّا يَقْرَؤُهُ شَيْئًا؛ فَهَذَا يُؤَدِّي بِهِ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الْهَذْرَمَةِ، مَعَ هَذِّ الْقُرْآنِ هَذًّا غَيْرَ حَمِيدٍ؛ وَبِالتَّالِي فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُرَادَهُ.

هُنَاكَ صَوَارِفُ سِوَىٰ هَذِهِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَ عَلَىٰ الْإِتْيَانِ بِهَا، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِتَمَامٍ وَكَمَالٍ وَدَوَامِ تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، إِنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ، وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com